جيل الغضب

الشباب العربي والتغيير

محمد عز الدين التازي

tazimed1948@yahoo.com

www.mohamedazeddinetazi.com

من غير شك، فإن الثورة التي يخوض معركتها الشباب العربي اليوم، قد جاءت بعد معاناة طويلة لظروف القهر التي مارستها الأنظمة السياسية العربية، وهي الظروف التي اتسمت بغياب الديمقراطية وعدم إشراك الشباب في القرار السياسي، بل وتهميش دوره عن طريق تعريضه للبطالة والغبن الاجتماعي وتفريغ طاقاته الحية في الصراع من أجل الخبز حتى لا يفكر في الحرية. وإذا كان الشباب العربي يستطيع أن يصل إلى المعلومة عن طريق الشبكة العنكبوتية، فقد أصبح قادرا على اكتشاف أكاذيب وألاعيب الأنظمة السياسية، وسيطرتها على المال العمومي، وسوء تدبيرها للشأن العام، من خلال اعتمادها على وزراء ورجال أعمال نكتشف اليوم، من خلال المحاكمات التي يتعرضون لها، أنهم عصابات لنهب المال العمومي، يحتمي بهم النظام السياسي كما يحتمون به. ومن المؤكد أن ثورة الشباب قد جاءت بعد مخاض وطول انتظار تحت ظروف القمع ومنع الحريات العامة، لكن السيل بلغ الزبا، واتسع الخرق على الراقع، وتحولت أحلام الشباب بحلم الديمقراطية وحقوق الإنسان والحق في الشغل إلى انتظارية طال أمدها، ففي الوقت الذي تغتني فيه بعض الفئات بثراء غير مشروع، يُحرم الشباب من أبسط حقوقه وهو الحق في التعبير.

إن التغيير الذي ينادي به الشباب العربي اليوم، هو تعيير يمس الهياكل السياسية العليا، ويخلخل الوجود المهيمن على السلطة لأنظمة شاخت منذ زمان وانقضت صلاحيتها في الداخل والخارج، وهو تغيير مشروع نبع من رغبة الشباب في تجديد أنظمة الحكم وإعادة الاعتبار إلى المؤسسات الدستورية، ورفض حالات الطوارئ التي احتمت بها بعض الأنظمة من أجل تكميم الأفواه ووضع المتارس التي يقوم عليها رجال الشرطة ورجال المخابرات.

وحيث يتفجر اليوم كل هذا المكبوت من معاناة الشباب، ليتحرر من عقد الخوف، ويعلن ثورته على أنظمة فاسدة، تعرت عوراتها أمام العالم، فإن ما يدعو إلى التساؤل، هو أن هؤلاء الشباب لا تحركهم جهات سياسية إسلاموية متطرفة، كما لا تحركهم تيارات يسارية على مختلفها، بل تحركتهم دوافع عميقة لا يمكن وصفها إلا بأنها تندرج ضمن حق الشباب العربي في الحرية والكرامة، وتحرير أوطانه العربية من هياكل سياسية منخورة، مارست سلطويتها وانتهازيتها وسرقتها للمال العمومي لعدة عقود من الزمن، فشعار التغيير الذي يحمله الشباب العربي اليوم، يكتسب محتواه العميق من حاجة الشعوب العربية إلى الخروج من أزمة سياسية / اجتماعية خانقة، أصبحت كابوسا هو كابوس التسلط على الحكم، وصناعة الوريث للحكم، من أجل أن تبقى دار لقمان على حالها، ويبقى الشعب متفرجا على مسرحية هزلية يراها بدموعه وهو مغلوب على أمره. إن ما يمكن أن يوصف به هذا الكابوس، هو اختلال التوازنات بين مطامح الشعب للحرية والكرامة وبين سلطة سياسة تحمي وجودها الفاسد بالقهر والتعذيب والتنكيل بالمواطنين.

اليوم، إذا كان الشباب العربي قد خرج إلى الشوارع، وقدم دماءه الزكية في تونس ومصر واليمن وسورية، فهو يعي جيدا، أن لا تغيير بدون شهادة واستشهاد، وأن لا ثورة بدون يد قوية تطرق الباب وهي مدرجة بالدماء. إنه جيل الغضب، وهو جيل عربي تجاور بثورته كل الخطابات الإصلاحية والتوفيقية من أجل إعادة رسم الخريطة الجيوسياسية في العالم العربي، وهذا الرسم لا يقوم إلا على إسقاط كل الأنظمة الفاشية عن طريق تحريك طاقات الشعوب العربية في تقرير مصيرها واختيارها للنظام الديمقراطي الذي يقوم على المؤسسات الدستورية النابعة من صلب الاختيارات الشعبية. ومع ذلك، فإن ما قد يعوق ثورة هؤلاء

الشباب، هو تغلغل بعض القوى في الجسم السياسي العربي، التي استفادت من نهب المال العمومي وتحصنت بمافيات وقراصنة ومرتزقة، وهي قوى لا مصلحة لها في أي تغيير تهب فيه رياح الديمقراطية. لعل هذه الإعاقة، هي ما يحضر في وعي الشباب المتريث في إحداث الخلجلة الكبرى في الجسم السياسي العربي، فليس المهم هو إسقاط النظام، ولكن الأهم، هو تغيير نظام بنظام، وفي هذه الحالة، فإن المسار الديمقراطي في البلدان العربية يحتاج إلى وقت طويل، وإلى تأهيل المواطن العربي عن طريق التوعية ليتلقى تربية سياسية تمكنه من اتخاذ المواقف عن طريق الاختيارات التي تصب كلها في قيم الديمقراطية والحرية، لكي لا يبقى ثمة من مواطن عربي يبيع صوته في الانتخابات بمبلغ مالي لا يتجاوز قوته ليوم أو يومين، ولكي لا يبقى من المواطنين العرب، من ينتصر الانتماء إلى القبيلة أو العشيرة بدلا من الانتصار إلى وطن عربي كبير متعدد الهويات واللغات والديانات والأعراق.

إن المشكلة الأساس تكمن فيما بعد هذه الثورة الشبابية التي تنادي بالتغيير، والتي نجحت في إسقاط بعض الأنظمة العربية، وهي في الطريق إلى إسقاط أنظمة أخرى. بل المشكلة، تكمن في إيجاد رؤية جديدة للشباب العربي، تنهض على إعادة قراءة تجارب الوحدة العربية، والخطابات القومية والناصرية والبعثية التي أحاطت بها، فمع تجاوز الظرفية الراهنة لهذه الخطابات، هل يمكن أن يتسع أفق التغيير الذي يحلم به الشباب العربي، إلى بناء سوق عربية مشتركة، وتحرير الحدود بين البلدان العربية، وتوحيد العملة، من أجل تأسيس خريطة جيوسيياسية جديدة للعالم العربي، هي التي يمكن أن تُذَوِّبَ الصراعات الإقليمية ومشاكل الحدود والمنافسة بين الأنظمة الحالية من أجل أوهام السلطة على المنطقة، وصولا إلى اقتصاد عربي موحد، وسياسة عربية موحدة، تزعزع أمن إسرائيل وتسعى إلى سلام عادل ليس سلام الشجعان كما وصفه أنور السادات وهو يقايض به من أجل رفع المعاناة عن الشعب المصري، وهي المعاناة التي لم ترفعها معاهدة كامب ديفد، لأن الشعب المصري ما زال يعاني بحد الآن، وإلا فلماذا يثور شبابه من أجل تحقيق الخبز والحرية؟

إن تغييرا يحمل هذا الطموح الكبير، من أجل وطن عربي كبير، تسقط فيه الأنظمة الحالية، وتأتي بعدها أنظمة أخرى، ليس هو الضامن لمشروع عربي كبير، يصعب أن نسميه

"وحدة عربية"، لأن الأنظمة الجديدة سوف تخوض في المشاكل المحلية. إلا أن حلم الشباب العربي، من المحيط إلى الخليج، يجب أن يمتد إلى أبعد الحدود، وأبعد تلك الحدود هو ما يبشر به قيام أنظمة ديمقراطية تسعى إلى الوحدة العربية في أقصى ممكناتها، بعيدا عن تصارع القيادات من أجل هيمنة قيادة سياسية على أخر، وسعيا إلى عقلنة الوضع العربي في اتجاه الأوضاع الدولية ومتغيراتها، وحرصا على الوجود العربي الدولي باعتباره قوى فاعلة ومؤثرة على السياسة والاقتصاد.

إن ذلك لن يتم في أجل قريب، بحكم التزحزح الآني الذي تعرفه ثورة الشباب وما تطالب به من تغييرات ظرفية، لكنه يشكل مشروعا مستقبلا لثورة أخرى، هي ثورة شباب الغد، صبيان اليوم، الذين يكبرون على ويَشِبُون على وعي سياسي جديد، هو الذي يصنع المستقبل العربي.

في كلمة أخيرة، أتوجه إلى كل الشباب العربي الحامل لأفكار التغيير، والتي مارسها بعنفوان جميل، وبتضحيات بدماء الشهداء، وهي أن يلتفوا حول بعضهم، عربيا، من أجل اقتسام الخبز العربي الواحد، وأن يوحدوا صفوفهم، فالتغيير آت، والمستقبل آت للإنسان العربي، من المحيط إلى الخليج، وليت هؤلاء الكهول والشيوخ من أبناء الشعب العربي يطول بهم العمر ليشهدوا على نضالات جيلكم الشاب، حتى يغمضوا أعينهم وهم يفخرون بكم وبتضحياتكم وعطاءاتكم لهذا الوطن العربي الكبير.

سلاما، وألف محبة لكل شاب عربي قاوم زيف الأنظمة العربية وحمل مشعل الحرية والديمقراطية.